حكمة الزكاة

المسلمون فى ظل الإسلام الحنيف أخوة متحابون متراحمون يتعاونون على زرع الخير واقتلاع الشر . قال الله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة » فالإسلام الحنيف يجعل المسلم القوى يرحم الضعيف والقادر يحمل العاجز والعالم ينور الجاهل والغنى يأخذ بيد الفقير العاجز عن العمل ويكفيه مؤونة السؤال والتسول . فليس من الإسلام فى شىء من لا يفعل ذلك كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه » . (رواه البخارى) .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وبهذه الأخوة الإسلامية المتحابة المتراحمة المتكافلة تكون الأمة الإسلامية أسرة واحدة يتقاسم أفرادها حلو الحياة ومرها وتصير وحدة واحدة متماسكة فى السراء والضراء وفى اليسر والعسر . وتبقى الحياة الحرة الكريمة ملازمة لهم ويقدرهم القريب والبعيد والصديق ويهابهم العدو .

ولن ينعموا بالحياة الطيبة الكريمة ما لم يضمحل من مجتمعهم البؤس والشقاء والجريمة والفساد لأن ذلك مرض فى جسم الأمة وخلل فى البناء الاجتماعى . لذلك فرض الله تبارك وتعالى الزكاة والانفاق من المال على الأثرياء وجعل للفقراء والمحتاجين العاجزين عن السعى والعمل ولا يملكون مصادر رزق ولا يجدون من يعولهم حقاً لازماً فى أموال الأغنياء الموسرين قال عز وجل : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

فلله جل شأنه ملك السموات والأرض والمال مال الله والناس جميعاً عيال الله وعباده وإلى الله مصير البشر جميعاً . يومئذ يسألهم عن كيفية تصرفهم فى مال الله الذى آتاهم فى الحياة الدنيا ويحاسبهم على ذلك حساباً عسيراً يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . ولكن ينفع الإنسان المال الذى أنفقه فى سبيل الله والبنون الذين رباهم تربية إسلامية صالحة .

أما الذين كانوا يكنزون الذهب والفضة ولم ينفقوا منها فى سبيل الله والذين أهملوا تربية أبنائهم وأساءوا تنشئتهم وإعدادهم فلهم عذاب أليم فى نار جهنم كما قال الله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وقال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل فى أهله راع وهو مسئول عن رعيته».

فالأموال التى تأتى عن طريق الزكاة والإنفاق والتبرع يعطى منها المحتاجون العاجزون عن السعى والعمل والذين ليس لهم مصادر رزق ولا عوائل يعولونهم ،وينفق منها على الجهاد فى سبيل الله ، ويمكن استثمار بعضها فى تعليم ذوى العاهات حرفاً ومهناً تناسبهم . وبذلك تتلاشى مظاهر البؤس والفقر والشقاء وتختفى صور الفساد والجريمة لأن الجوع كافر لا يحلل ولا يحرم .

ونعود إلى القول بأن ماتحت أيدى الناس من ثروات وأموال وأملاك إنما هى فى الحقيقة والواقع من الله وإليه ؛ ويدل على ذلك أن الإنسان يموت ويتركها لغيره وبالتالى حين يموت الناس جميعاً يوم القيامة يتركونها ولا يحملونها معهم إلى الدار الآخرة وفى ذلك قال الله تبارك وتعالى : «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كريم» وقال تعالى : «وآتوهم من مال الله الذى آتاكم» .

والمال وديعة لدى الإنسان ولابد أن ترد الوديعة إلى صاحبها ومالكها .

وقد عرف هذه الحقيقة الشاعر العربى الجاهلى لبيد بن ربيعة فقال :

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولابد يوماً أن ترد الودائع

وأحرى بالذين يدخرون الأموال الطائلة فى البنوك والمصارف تأميناً لمستقبلهم الدنيوى العابر أن ينظروا إلى مستقبلهم الحقيقى الدائم فيؤمنونه برصيد وفير من الأعمال الصالحة الخيرة فى بنوك البر والإحسان وذلك يكون بإنفاق الكثير من أموالهم فى سبيل الله ، فالرصيد الحق الذى ينفع الإنسان فى الدنيا والآخرة ماكان من الزكاة والإنفاق فى سبيل الله وليس المال المكنوز فى بنوك الدنيا .

ولاريب فى أن مستقبل الإنسان الحقيقى الدائم فى الحياة الآخرة لا فى الحياة الدنيا ، ويبين ذلك أن الإنسان معرض للموت فى كل وقت ولا يضمن بقاءه يوماً واحداً سواء كان طفلا أو شاباً أو شيخاً .

والأيام تمر سريعاً مر السحاب وسرعان ماينتهى عمر الإنسان سواء كان قصيراً أو طويلا . وكل يوم يمضى إنما هو نقص من عمر المرء وخطوة نحو الموت كما قال أحد الشعراء :

والمرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم مضى يدنى من الأجل

لذلك يعتبر الإنسان العاقل الحكيم الحياة الدنيا مزرعة للآخرة وفرصة ذهبية لعمل الخير والبناء والتعمير يحدوه إلى ذلك قوله سبحانه وتعالى : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . وقوله عز وجل : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . وقوله جل شأنه : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

ومستقبل الإنسان الحقيقى الدائم فى الدار الآخرة يرسم ويحدد فى الحياة الدنيا . لذلك من أنفق عمره فى طاعة الله وعمل الخير ضمن له مستقبلا كريماً زاهراً فى الآخرة ، ومن ضيع حياته فى معصية الخالق وفعل الشر خسر الدنيا والآخرة وحجز لنفسه مقعداً دائماً فى نار جهنم .

وأى مستقبل للإنسان فى الحياة الدنيا وهو معرض للرحيل إلى الحياة الآخرة فى كل وقت ولا يضمن بقاءه فى الدنيا يوماً واحداً لا بل ساعة من الزمن مصداقا لقوله تعالى : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

وفى الزكاة حكمة سامية عليا تحمل الخير للفرد والمجتمع فهى تزكى النفس وتطهرها من داء الشح والبخل والنفس بفطرتها تحب المال حباً جماً وتضن به كما قال تبارك وتعالى : « وتأكلون التراث أكلا لما،

وتحبون المال حباً جماً » . والشح مرض نفسى وأخلاقى يجلب لصاحبه مذمة الناس ويعود عليه بخسارة أدبية ومادية فى الدنيا والآخرة . والجود ينفع صاحبه عند الله والناس وفى ذلك يقول الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وقال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع » وقال أيضاً « أدوأ الداء البخل » .

والزكاة تطهر نفوس الفقراء والمحتاجين المحرومين مما يمكن أن يتولد فيها من حسد وسخط على الأثرياء الذين يقفون منهم موقفاً سلبياً ولا يعطونهم مما أعطاهم الله تعالى . وتسهم الزكاة فى محو مظاهر البؤس والشقـــاء والجريمة والانحراف . لأنه يتولد عن الفقر والبؤس فساد وشر وجريمة ولا غرابة فى ذلك فالجوع كافر كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « كاد الفقر أن يكون كفراً » .

وفى الزكاة تجنيد إجبـــارى للنفس البشرية فى ميدان البر والإحسان وتدريب لها على البذل والإنفاق لأنها أمارة بطبيعتها بالسوء وميالة إلى الشح وكنز المال .